امرأة سكندهاند

امراة سكندهاند

اقتحمت دلال الابنة الوحيدة للسيدة سعاد باب غرفة نوم أمها باندفاع شديد خيل إليها وقتها أن صاروخًا قذف بابنتها تجاهها مقتحمه عليها وحدتها في حجرتها الخاصة .

وكانت سعاد منذ انفصالها عن زوجها قد عاشت مع ابنتها حياة مستقلة في شقة صغيرة تشاركهما فيها (دادة) أم سيد، ومنذ ذلك الحين اعتادت دلال ألا تقتحم غرفة نوم والدتها أو توقظها لأي سبب من الأسباب .

انتبهت سعاد على صوت ابنتها ذات السبعة عشر ربيعًا وهي تقول :

ـ آسفة يا أمي أعلم أنه ممنوع إيقاظك لأي سبب من الأسباب، وأعلم أيضًا أي خطأ ارتكبته عندما اقتحمت حجرتك بهذا الشكل المفاجئ ولكن . . .

وكانت دلال قد اقتربت من سرير أمها فجلست بجوارها واحتضنتها وطبعت قبلة سريعة على خدها وكأنها تلطف الجو المتوتر نتيجة فعلتها باقتحامها الغرفة على هذا النحو، أو ربما لغرابة ما سوف تخبرها به وجعلها توقظها فجأة. سحبت دلال يد أمها تطبع عليها قبلة وهي تقول :

ـ ماما . . . تعرفي إن إيديكي حلوة قوي . . . لدرجة أني باغير منهم . . مش بس إيديكي اللي حلوين . . لا دا انت كلك حلوة . . ياريتني كنت حلوة زيك .

نظرت سعاد إلى ابنتها كمن تراها لأول مرة .

كانت دلال سمراء البشرة فيها من والدها بعض التفاصيل ولكنها تحمل سمات جذابة، تختلف مقاييس جمالها من وجة نظر أمها عن أي شابة أخرى، كانت ـ كما تراها ـ عيونها كأجمل ما تكون الأنثى .

قالت سعاد (مستنكرة) :

ـ ماذا حدث يا ابنتي حتى توقظيني بهذا الشكل المفاجئ؟

فردت الابنة بدلال وهي تلملم شعر أمها المنسدل على كتفيها :

ـ قد إيه شعرك جميل يا أمي وخاصة بعد ما تركته إلى هذا الطول .

تقول سعاد وقد نفد صبرها :

ـ هل جننت يا ابنتي حتى توقظيني بهذه الطريقة، كي تتغزلي في يديّ وشعري؟ ألم تريهم من قبل أم ماذا وراءك؟

استأنفت سعاد كلماتها قائلة بصوت فيه قلق :

ـ حذار أن تكوني قد أغضبت (دادة) أم سيد . . فلم يبق لنا سواها نأمن معًا شر وحدتنا تلك .

قالت دلال لأمها مبتسمة :

ـ (دادة) أم سيد بخير وتعد لك قهوتك . .

صمتت قليلاً وقالت وهي تضع يدها على مفتاح التكييف الملاصق لسرير أمها تغلقه :

ـ على فكرة يا ماما ساعات أتخيل أنك تحبي التكييف ده أكثر مني .

انتفضت سعاد واقفة ونظرت إلى ابنتها تحاول أن تقرأ ما بين السطور أكيد أن هناك شيئًا ما تود ابنتها أن تخبرها به ولكنها خائفة، بهدوء شديد حاولت أن تطمئنها وتشجعها حتى تقول ما تخفيه، فجذبتها إلى صدرها وضمتها بحنان وقالت :

ـ بدون لف ولا دوران . . عايزة تقولي إيه . . فيه إيه هنا؟

وأشارت بأصبعها إلى رأسها .

قالت دلال وهي مسرعة إلى خارج الحجرة كمن تريد إلقاء قنبلة وتستعد للهروب :

ـ ماما . . خالي هنا ومعاه واحدة حلوه قوي ينتظرانك في الصالون .

ألقت الابنة قنبلتها وفرت دون انتظار لإجابة أو تعليق .

اندفعت سعاد مسرعة تجاه باب الحجرة محاولة اللحاق بابنتها حتى تعرف مزيد من التفاصيل عن هذا النبأ الغريب، ولكن دلال كانت قد اختفت .

شعرت سعاد للحظات أن الحجرة تدور بها فلم تتمالك نفسها وألقت بجسدها على الكرسي (الفوتية) الملاصق لباب الغرفة وشعرت أن دقات قلبها تهزها بشدة، وسحابة سوداء من الذكريات المؤلمة تقفز فجأة إلى رأسها حركتها زيارة أخيها المفاجئة لها الآن .

فبدأت تسترجع حياتها ومقاطعة أخيها لها يوم قررت الانفصال عن زوجها، لقد مرت خمس سنوات على هذا اليوم المشئوم الذي اعتبرته أسرتها كلها عار عليهم يوم طلبت الطلاق من زوجها، لم يكن في أسرتها سابقة طلاق . لذلك اعتبروا هذه السابقة وصمة عار في جبينهم، وخاصة أن أسرتها تضم بين أفرادها بعض الشخصيات العامة التي تتناول الصحافة أخبارهم .

إن صوت أخيها مازال يدوي في أذنيها وهو يقول :

ـ أنت عارفة يعني إيه امرأة مطلقة يعني واحدة سكندهاند . عايزة تعرفي يعني إيه يعني (ست مستعملة) . . يعني مفيش راجل محترم يقبل يرتبط بيك ويتجوزك بعد كده .

سرحت سعاد وأخذت تسترجع حياتها مع من كان زوجها ووالد ابنتها . كانت حياتها صورة سريالية غير مفهومة مرسومة بريشة من معدن رخيص مطلي من الخارج بماء الذهب وللذهب بريقه ولمعانه، والريشة في يد زوجها كلها بريق ولمعان . سهرات تتلألأ . . رقصات وراقصات سكارى ومخمورات . تقول سعاد :

ـ لا نكاد نفيق حتى نسكر وإذا ما سكرنا فنحن عابثون من سقطة إلى أخرى، ومن غيبوبة إلى غيبوبة .

كانت سعاد تعلم أنها وزوجها ينزلقان إلى الهاوية، وجاءته في يوم تطالبه بالكف عن هذا الطريق ، ولكنه كان يبرر ذلك قائلاً :

ـ إنه (بيزنيس) يعني شغل . . (موني) فلوس . . ولا أنت غاوية فقر .

وكانت سعاد تكره استخدام المصطلحات الأجنبية وخاصة فيما بينهما فقالت :

ـ دعنا من هذه المصطلحات الآن فنحن في حوار عائلي ولسنا بصدد صفقه تجارية . . فنحن الاثنان عرب فتحدث العربية .

كان زوجها من قطر عربي جريح مقيم في مصر بشكل دائم .

عادت سعاد تقول لزوجها :

ـ الآن إما أن تتقي الله في وفي ابنتك وتلتزم بسلوك ديننا الحنيف الذي يجمعنا ، أو تسرحني بإحسان إذا كنت عاجزًا عن معاشرتي بمعروف ، أما أسلوب حياتنا هذا فأنا أرفضه . . فلي ابنة سوف تكبر وتعي وتستوعب وتفهم . . وربما عاتبيني على إني قد تماديت معك في هذا السلوك وارتضيته قاعدة لمعيشتنا . .

قال كمن يحلق في السماء مناطحًا السحاب وكأنني أنا محدثته حشرة حقيرة في سابع أرض :

ـ إيه بقى السلوك اللي مش عاجبك . . معيشك أحسن عيشة محسودة عليها من القريب قبل الغريب ومفيش داعي أفكرك إني عملت منك صورة تتمناها أي واحدة في عيلتكم أو معارفكم ، شوفي الشقة اللي أنت فيها على النيل شوفيها تساوي كام ، شوفي العربية اللي أنت راكباها بيحسدوك عليها اللي يعرفك واللي ما يعرفكيش . . هاتي

علبه مجوهراتك وافتحيها ومتعي عينيك بها .

وقبل أن تنطق سعاد بكلمة واحدة استرسل زوجها يقول :

ـ هاتي جواب البنك الأخير وشوفي رصيدك بقى كام .

وضحك بخبث وواصل حديثه :

ـ زودي على الرصيد ده عشرين ألف جنيه دول هديتك من عادل بك على الصفقة اللي تمت أول أمس . أصل عادل بك أعجب بك جدًا بأسلوبك وذكائك ووجهك الجميل ده .

ثم ضحك ضحكة عالية وهو يلقي إليها بالشيك وهم بالانصراف ، وقد تحول وجهه فجأة إلى وجه شيطان أوقفته سعاد قائلة :

ـ أعتقد أنه ليس من الضروري أن يرتبط نجاحك في العمل التجاري بتلك السلوكيات التي لا يقرها دين ولا أخلاق . وإني على علم تام بكل علاقاتك النسائية التي تقيمها تحت ستار العمل المزعوم . بل إن هذا السلوك منك يجعل الكثيرين من المحيطين بك يطمعون فيّ ويحاولون إقناعي بأن أطعنك بذات الخنجر من خلال علاقات حقيرة معهم .

نظر إليها مبتسمًا غير مبال بما تقول . . وهمس لها قائلاً :

ـ يا ستي بلاش فلسفة وفذلكة كلام ، مشي أمورك . . العبي على الأحبال المهم ما تقعيش . . وأنا عارف ومتأكد إنك شاطرة ولو إن عندكم في مصر مثل بيقول ما يقع إلا الشاطر .

قالت سعاد مستعطفة :

ـ وعلى إيه كل ده إحنا الحمد لله عندنا اللي يكفينا وأمورنا المادية كويسة جداً مش محتاجين .

قال زوجها مقاطعًا :

ـ يا ماما البحر يحب الزوادة . . يا الله بلاش كلام فارغ . . قومي واستعدي لسهرة الليلة فهي مهمة جداً بالنسبة لي، وأنا واثق إنك قدها وقدود أصل وجودك بيسهل أمور كثيرة . . ده غير إني وعدت حمدي بيه إنه سينول شرف رقصتك معاه إذا اتفقنا على الصفقة الجديدة، وأنا متأكد إننا حتتفق مادمت موجودة معانا . . مش أنا باقولك يا حبيبتي إنك فاسوخة، إنت خَرزة الحظ بتاعي . . مشكلتي إني بتفائل بيكِ .

واستطرد وهو يمسك بيدها كمن يخشى عليها من الفرار :

ـ تعالي . . تعالي . . ننام لنا ساعة نريح فيها نفسنا قبل موعد السهرة .
(قهقه ضاحكًا وهو يجذبها ناحيته) ما هو طباخ السم بيدوقه .

وعلى غير ما عودته جذبت منه يدها بقوة ووقفت في منتصف الحجرة وقد شعرت أن قامتها قد استطالت حتى قاربت السماء وقالت من عليائها وهي تنظر إليه وقد تضاءل أمامها وأصبح قزمًا :

ـ طلقني . . .

كلمة مريرة لا يشعر مرارتها إلا من ذاقها . إنها أبغض الحلال ولكنها حلال . ذكريات قفزت فجأة إلى رأسها .

انتفضت سعاد واقفة في منتصف حجرتها تحاول أن تبعد تلك الذكريات المؤلمة عن رأسها، ولكن الماضي أصر أن يلاحقها فتذكرت رد زوجها عليها بصفعة قوية أطاحت بها أرضًا وقال :

ـ اسمعي سأتركك وأنصرف وسأعود لك بعد ساعة، فإما أن تراجعي نفسك وتستعدي للخروج، أو تغادري هذا البيت وإلى الأبد، وعشان تكوني عارفة حتخرجي زي ما دخلتِ إيد ورا وإيد قدام .

وأخذ يبصق على الأرض بطريقة مقززة واستأنف يقول :

ـ اسمعي لن تكوني بالنسبة لي أكثر من تلك البصقة .

ونظر ناحيتها وهي لازالت ملقاة على الأرض واتجه يهم بالانصراف، ولكنها وقفت مسرعة مستعيدة اتزانها وقوتها وبهدوء شديد قالت له :

ـ إذا كنت بالنسبة لك مجرد بصقة . . فأنا أعفيك من هذه الساعة التي منحتني إياها كي أقرر فالأمر لن يحتاج سوى دقيقة واحدة أرد فيها عليك .

ووجدت نفسها تنتزع دبلته من إصبعها وتقول له :

ـ هذه الدبلة تحمل اسمك وأعتقد بعد تصرفك هذا فمكانها الطبيعي هنا .

واتجهت مسرعة ناحية الحمام وأكملت حديثها قائلة :

ـ مكانها الطبيعي هنا في هذا المرحاض مع البقايا العفنة .

وألقت بدبلته في المرحاض وشدت السيفون بسرعة وأحست بأنها ألقت

بجميع همومها وتخلصت من قيودها وطهرت نفسها من كثير من الذنوب .

لم يكن حصولها على الطلاق أمراً سهلاً فقد تنازلت عن كل شيء إلا حضانة ابنتها وصمدت أمام تحديات أهلها ومقاطعتهم لها . لقد تخلوا عن مساندتها لأسباب تخصهم وبتحريض من زوجها الذي كان بين الحين والآخر ينعم عليهم بالهدايا الدسمة القيمة ، وكان المقابل لذلك أن يبعدوها عن حياتهم تمامًا دون أي اعتبار لمشاعرها ورغباتها وكنوع من العقاب والإذلال تغلبت عليه بإيمانها وصبرها .

واستمرت سعاد تحدث نفسها :

ـ ارتضيت كل ذلك ، وظلت كلمات أخي تتردد في أذناي وهو يقول : إنت ناسية نفسك ولا إيه إحنا في مجتمع شرقي لا يقبل طلاق المرأة ، ويظل طلاقها وصمة عار على جبينها وجبين أسرتها ، فحفاظًا على الشكل الاجتماعي سيبك من فكرة الطلاق دي .

وللعجب أن سعاد عندما صارحت أخاها بتصرفات زوجها المؤسفة قال :

ـ إنه رجل ، يعني يعمل ما يحلو له طالما أنه لم يقصر في واجباته المادية تجاه أسرته .

كانت سعاد تتساءل :

ـ كيف يكون هذا الرأي من شاب مثل شقيقها متعلم مثقف متدين ، شاب له شهرته وبريقه يرضى لشقيقته أن تخدع نفسها وزوجها حفاظًا على الشكل الاجتماعي . إن هذا نفاق اجتماعي لا يتقبله إلا

المنافقون .

انتبهت سعاد على صوت ابنتها وهي تستعجلها للقاء خالها .

خمس سنوات مرت منذ طلاقها . لم يسع أحد منهم للقاء الآخر . فما الذي أتى به اليوم؟ ومن تلك المرأة التي معه وتصحبه؟

عندما صافحت سعاد شقيقها مرحبة شد على يديها قائلاً :

ـ جئتك و(فايزة) لندعوك لحفل زفافنا الأسبوع القادم ، ولسوف نسعد بحضورك فلا تخذلنا وتحرمينا من وجودك معنا أنت وابنتك الغالية .

قالت سعاد :

ـ مبروك لك يا أخي .

ثم التفتت ناحية العروس كي تتأملها ، ولم لا وهي التي جعلت شقيقها ينهي مشوار عزوبيته وإضرابه عن الزواج الذي طال لسنوات ، لابد أنها شديدة التميز . . لابد أن بها شيئًا مختلفًا . ودققت النظر إليها تفحصها . إنها هي بعينها (لوزة) دلوعة الحي الشابة الجميلة . . المطلقة .

قالت سعاد :

ـ مبروك يا لوزة .

ونظرت إلى شقيقها وهمت أن تقول فوجدت شقيقها مطأطئًا رأسه وكأنه أدرك ما أرادت قوله فصمتت مكتفية بذلك التعبير الذي على وجهه ولسان حالها يقول :

ـ ها قد تزوجت أخيراً يا أخي من امرأة مطلقة سكندهاند. . يعني (ست مستعملة).